مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
مؤتمر اللغة العربية وآدابها الدولي الثاني // أربيل 30 - 31 / 7 / 2025
الجزء الثاني
أيلول / 2025
doi.org/10.52866/esj.2025.31

الصوت اللغوي وأثره في تصوير المعنى المفردة القرآنية أنموذجاً

أ.د. هادي أحمد فرحان
رئيس قسم اللغة العربية وأستاذ النحو في كلية التربية / الجامعة العراقية

مستخلص:

الهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن التوظيف الصوتي للمفردة القرآنية في خدمة المعنى، فالصوت القرآني قد تم توظيفه، بجميع مستوياته وبشكل دقيق، لخدمة المعنى الذي أفرغ فيه؛ وهو لذلك يتخير الألفاظ تخيراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع معنى الآية ومعنى السياق بصورة عامة.

فالحدث المنساب الرقيق تنساب إليه الحروف الرخوة المهموسة المستفلة غالباً لتشكل ألفاظ التعبير عنه، والحدث الجلل الصاخب تتسابق إليه الحروف الشديدة المجهورة المستعلية غالباً لتشكل ألفاظ التعبير عنه، هذا شعور عامّ نحاول أن ندلّل عليه من خلال الألفاظ وأصواتها، وأحداثها التي تعبر عنها.

الكلمات المفتاحية: القرآنية – المفردة – الإيحاء – الصوت – تصوير – المعنى .

A summary of the audio suggestion research for the Quranic vocabulary

Abstract :

The aim of this study is to reveal the phonetic employment of the Qur'anic vocabulary in the service of meaning. Therefore, he chooses words finally based on the investigation of music consistent with the meaning of the verse and the meaning of the context in general.

The subtle flowing event is referred to by the soft, whispered letters that are often excused to form the expressions of it, and the loud, vocal event to which the strong, loud, loud letters often compete to form the expressions of it.

key words: Quranic- singular- suggestion- sound -depicting- meaning

المقدمة:

إن القرآن الكريم مشغلة محبيه إلى قيام الساعة، كلما مضى جيل تلاه آخر، قالت عائشة بنت الشاطئ عن القرآن هو: ((مشغلة الدارسين والعلماء جيلاً بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كلِّ مطمح، عالياً يفوق طاقة الدارسين)) [1].

ومما شغل الدارسين قديماً وحديثاً صوت القرآن وجرسه وأثره في تصوير معانيه، إذ الحكمة تقتضي أن يوظف كل شيء نلفظه في خدمة ما نقصده، والصوت هو عمدة ما نستعمله في التعبير عمّا في نفوسنا.

إنّ الصوت المسموع المتشكل من تآلف الحروف في الكلمة الواحدة، ثم تآلفها مع أخواتها من مفردات التعبير له إيقاعه في نفس السامع، وهو جزء خفيٌّ من أجزاء التعبير، ومظهرٌ من مظاهر تصوير معانيه.

فالحدث المنساب الرقيق تنساب إليه الحروف الرخوة المهموسة المستفلة غالباً لتشكل ألفاظ التعبير عنه، والحدث الجلل الصاخب تتسابق إليه الحروف الشديدة المجهورة المستعلية غالباً لتشكل ألفاظ التعبير عنه، هذا شعور عامّ نحاول أن ندلّل عليه من خلال الألفاظ وأصواتها، وأحداثها التي تعبر عنها.

فكرة البحث ومشكلته:

قد تعود جذور هذه الفكرة إلى نظرية المحاكاة إحدى النظريات التي طرقها القدماء لتفسير نشوء اللغة، فقد ((ذهب بعضهم إلى أنَّ أصل اللغات كلها إنّما هو من الأصوات المسموعات ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد)) [2].

وقد شاع في كتب الأصول بحث مسألة المناسبة بين اللفظ والمعنى، فتفرقت آراؤهم شتّى، فالجمهور على أن لا مناسبة، وأغرب تلك الآراء ما نسب إلى عباد بن سليمان الصيمري من القول بوجود مناسبة طبيعية بين اللفظ ومدلوله، أي أن دلالة اللفظ على معناه ذاتية تدرك من خلال حروفه[3].

ونحن نشهد أنّ ما ذهب إليه الصيمري مبالغة وادّعاء لا تشهد له الوقائع اللغوية في جميع اللغات، ولكنّ فكرتنا التي نحاول أنْ نتبين معالمها من خلال هذا البحث تهدف إلى استشعار المناسبة التي قد نجدها بين أصوات اللفظ وطريقة أدائه، وبين مدلوله والحدث الذي صوره، وما يمكن أن تؤديه تلك الأصوات من إيضاح وتصوير لأحداثها ومعانيها.

وشتان بين النظرية القائمة على الأدلة الواقعية العلمية، وبين الإحساس القائم على الذوق والفردية.

حدود البحث:

ألفاظ مختارة من آيات القرآن الكريم رأى فيها الباحث أو من قبله من الباحثين دلالة صوتية ساهمت بشكل ما في إثراء المعنى العام الذي وردت فيه تلك الأصوات.

إذ أنّ لكل كلمة ذائقة سمعية تكتسبها من استقلالها بحروف معينة، قد تختلف عمّا سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى ذاته، ممّا يجعل الكلمة المختارة مؤثرة أكثر من الأخرى، وإنْ اتحدت معها بالمعنى عموماً، بما تضفيه الدلالة الصوتية

(1) الإعجاز البياني للقرآن: 19.

(2) الخصائص: 47/ 1.

(3) ينظر: المحصول في أصول الفقه: 181/ 1، والبحر المحيط في أصول الفقه: 264/ 2.

التي تتجلى بكلمات مختارة من زيادة في التعبير، إمّا بتكثيف المعنى، وإمّا بإقبال العاطفة، وإمّا بزيادة التوقع، فهي حيناً تصكّ السمع، وحيناً تهيء النفس، وحيناً آخر تضفي صيغة التأثر فزعاً من شيء، أو توجهاً لشيء، أو رغبة في شيء.

أهداف البحث:

1- بيان منزلة الصوت اللغوي في زيادة المعنى اللغوي للمفردة العربية:

إنّنا لا نقول: إنّ الأصوات دلت على معانيها، ولكنّا نرى بأن هناك مناسبة وانسجاماً بين أصوات بعض الألفاظ وما تدلّ عليه.

2- بيان أثر الصفات الصوتية في معاني المفردات التي تتشكل منها:

قد حدثت نفسي، قبل القراءة في هذا الباب، عن دلالة بعض الأصوات عموماً على بعض المعاني العامة، كدلالة حروف الذلاقة والهمس على الرخاء واللين، ودلالة حروف الاستعلاء والقلقلة على القوة والشدة، ودلالة حروف الصفير على الأصوات واختلاطها، ثم شرعت في القراءة فيما كتب القوم في هذا الباب فرأيت انسجاماً وتوافقاً عامّاً بين ما شعرت به، وما شعر به غيري من الباحثين، فكأنّ في ذلك أمارة على جواز الاستئناس بهذا الرأي، ومقبوليته العامة، والاعتداد به، والبناء عليه.

3- بيان أن الدلالة الصوتية يمكن أن تساند الدلالة اللغوية في بيان المعنى:

إذ هناك نوع من الدلالة تستمد من طبيعة الأصوات، وهي التي يسميها علم اللغة الحديث (الدلالة الصوتية) [4].

4- بيان كيفية توظيف الصوت في تحميل اللفظة شحنة إضافية من المعاني:

ففي واقعنا الاجتماعي ومخاطباتنا اليومية نحن نستغل الصوت إيَّما استغلال في نقل شحنات متنوعة من المشاعر، فالخصومات والنزاعات تتخللها أصوات صاخبة مصدرها رفع الصوت بما نتلفظ، وليس رفع الصوت إلاّ تعبيراً عن تلك المشاعر التي تولدها النزاعات، وكذا فإنّ نغمة التطريب التي تكتنف ألفاظنا عندما نفرح ليست إلاّ تعبيراً صوتياً عن مشاعر الفرح التي تولدت في نفوسنا، وكذا مشاعر الحزن التي تخيّم على ألفاظنا في مناسبات الألم ليست إلاّ تعبيراً صوتياً ينقل ما تولده تلك الأحداث من مشاعر مؤلمة، فالأصوات إذاً وسيلة من وسائل نقل المشاعر من جهة، ووسيلة من وسائل التأثير في مشاعر منْ يسمعنا من جهة أخرى.

5- بيان خفي الدلالة:

ففي هذه الصفحات سنتلمس هذا النوع الخفي من الدلالة القائم بين الصوت ومدلوله من خلال النظر في بعض المفردات القرآنية التي أثارت في نفوس الباحثين مشاعر مشتركة، أوحت بها صيغها الخاصة، وأصواتها المتميزة التي ناسبت معانيها وأحداثها.

منهج البحث وإجراءاته:

سرت في عرض مادة هذا البحث على ثلاثة محاور:

الأول: محور نظري نتبين من خلاله جرس الألفاظ اللغوية، والألفاظ القرآنية وأثره في نفس تصوير المعنى في نفس السامع.

والثاني: هو محور تطبيقي يقوم على حصر

(4) وممن يذهب إلى ذلك من علماء اللغة الغربيين (همبلت)، و(جسبرسن)، وسمى الأخير هذه الظاهرة رمزية الألفاظ. ينظر: دلالة الألفاظ: 68، والجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 337.

مظاهر الإيحاء الصوتي للمفردات القرآنية، والتي يمكن لنا أن نتلمسها فيما يأتي:

1- حركات البنية وتضعيفها.

2- مخارج الحروف وصفاتها.

3- قواعد التجويد وأداؤها.

4- حروف المد وزياداتها.

والمحور الثالث يقوم على استكشاف الصور السمعية للألفاظ القرآنية، وهي على نوعين:

الأول: صور سمعية فيها المحاكاة الصوتية بين جرس اللفظ وصوت الحدث الذي يدل عليه.

والثاني: صور سمعية فيها المناسبة العامة بين جرس الألفاظ وطبيعة الأحداث الدالة عليها.

الدراسات السابقة:

قد سبقت في هذا المضمار بدراسات موسعة رأيت فيه الكثير من المبالغات التي تتنافى مع المقصد اللغوي مما يخرجها من دائرة البحث العلمي إلى دائرة الفلسفة اللغوية التي لا يدركها إلا أصحابها، وقد أفدت من فكرتها في كثير من الأحيان، ثم أضفت إليها ما كان من ملاحظاتي الخاصة، ومن أهم هذه الدراسات:

1-الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: د. أبو عائشة.

2- الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: د. كاصد ياسر حسين.

3- الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: د.ماجد النجار .

4- الصوت اللغوي في القرآن: د. محمد حسين علي الصغير.

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون على مبحثين بعد هذه المقدمة، أولهما بعنوان: جرس اللفظ وآثاره الجمالية، وثانيهما بعنوان: مظاهر الإيحاءات الصوتية للمفردات القرآنية وصورها السمعية.

ثم بعد ذلك جاءت خاتمة البحث وقد تضمنت أهم نتائجه وتوصياته ثم قائمة بمصادره .

أسأله تعالى التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول

جرس اللفظ وآثاره الجمالية

جرس الألفاظ العربية:

إن اللفظ الذي نستعمله للتعبير عمّا في صدورنا من أفكار ومشاعر هو صوت مسموع، وهذا الصوت يحمل في كلّ جزئية منه نصيباً من المعنى والمشاعر التي سيق لأجل التعبير عنها، فالصفات البارزة من صفات حروفه لا ضير أنْ توظف في تصوير تلك المعاني والأحداث.

إن اللغات أصوات مسموعة، وظيفتها نقل المعاني والتواصل بين أبناء المجتمع، وهذه الأصوات منها ما يخف على اللسان، ويطرب الأسماع لحسن تأليفه، ومنها ما يتعثر به اللسان، ويثقل على الأسماع وقعه لفرط تنافر ما ائتلف من أصواته، ((ومن له أدنى بصيرة يعلم أنّ للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتاً منكراً كصوت حمار، وأنَّ لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم))[5].

وإن كثيراً من الدارسين يصف لغتنا بأنها لغة موسيقية، وأنها انحدرت إلينا، وقد اكتسبت هذه

(5) المثل السائر: 2 8/ 1.

الصفة منذ أقدم نصوصها[6].

((وتلك الخصيصة أكسبت سمع العربي قدرة فائقة على الحكم على النصوص والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة، فصار مرهفاً يستريح إلى ضرب من الكلام لحسن وقعه وينفر من آخر لنبو جرسه))[7].

واعلم أن للألفاظ مهابة كمهابة مناظر الرجال، ((تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قدر ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهم غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي))[8].

فالمتكلم يختار من ألفاظه، وإنّما تتمايز الألفاظ بأصواتها، ما يناسب إحساسه والأحداث التي يريد نقلها، ولن يقدِّم على الألفاظ الموحية بأصواتها غيرَها، فالصوت الذي يصور إحساسه وأحداثه بصدق المطابقة بينه وبين معناه، هو الذي سيؤثر في السامع ببراعة التصوير وتكامله.

فيختار لكل حالة مرادة ألفاظها الخاصة التي لا يمكن أن تستبدل بغيرها، فيجيء كل لفظ متناسباً مع صورته الذهنية من وجه، ومع دلالته السمعية من وجه آخر، ((فالذي يستلذه السمع، وتسيغه النفس، وتقبل عليه العاطفة هو المتحقق في العذوبة والرقة، والذي يشرأب له العنق، وتتوجس منه النفس هو المتحقق في الزجر والشدة، وهنا ينبه القرآن المشاعر الداخلية عند الإنسان في إثارة الانفعال المترتب على مناخ الألفاظ المختارة في مواقعها فيما تشيعه من تأثير نفسي معين سلباً وإيجاباً))[9].

جرس المفردة القرآنية:

إن التعبير القرآني فن أسلوبي خاص قائم على انتقاء المفردات ذات الصيغ والأصوات المتناسبة مع الأحداث والمعاني التي تعبر عنها، و((إنّما يكون الكلام سامياً إذا جاءت مادة صوته مكيفة بشكل موسيقي دال))[10].

إذ أنّ لكل كلمة ذائقة سمعية تكتسبها من استقلالها بحروف معينة، قد تختلف عمّا سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى ذاته، ممّا يجعل الكلمة المختارة مؤثرة أكثر من الأخرى، وإنْ اتحدت معها بالمعنى عموماً، بما تضفيه الدلالة الصوتية التي تتجلى بكلمات مختارة من زيادة في التعبير، إمّا **بتكثيف المعنى**، وإمّا **بإقبال العاطفة**، وإمّا **بزيادة التوقع**، فهي حيناً **تصكّ السمع**، وحيناً **تهيء النفس**، وحيناً آخر **تضفي صيغة التأثر فزعاً من شيء، أو توجهاً لشيء**، أو **رغبة في شيء**.

هذا المناخ الحافل بكلّ هذه الزيادات التعبيرية إنّما ينشأ من الدلالة الصوتية المصاحبة للمعنى[11].

((إن الصوت القرآني قد تم توظيفه، بجميع مستوياته وبشكل دقيق، لخدمة المعنى الذي أفرغ فيه))[12]؛ لذلك فقد عني القرآن بجرس الألفاظ وإيقاعها عنايته بمعانيها، ((وهو لذلك يتخير الألفاظ تخيراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى

(6) دلالة الألفاظ: 195.
(7) دلالة الألفاظ: 195.
(8) المثل السائر: 181/ 1.
(9) الصوت اللغوي في القرآن: 163.
(10) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: 266، وينظر: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 273.
(11) ينظر: الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 2، والصورة الفنية في المثل القرآني: 238.
(12) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 9.

المتسقة مع جوّ الآية وجو السياق، بل جوّ السورة كلِّها في كثير من الأحيان))[13]، كل ذلك قائم بتوازن تام مع دلالة تلك الألفاظ؛ ((ذلك أن الاستخدام الصوتي في القرآن لا يعارض الجانب الدلالي إطلاقاً إنْ لم يكن مبرزاً له في الأعمّ الأغلب، وليس قولي هذا إلا متنفساً للولوج إلى التأكيد على أنّ الاختيار، وأقول الاختيار المنحصر هنا إلى حدٍّ كبير في اختيار المفردة، إنّما يكون دلالياً عن طريق التوظيف الصوتي للمفردة، وليس لمسعى جمالي يحقق إثراءً لنغمة النصّ القائمة على نوع التوازن الصوتي))[14].

وهكذا يبدو لونٌ من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرة، وأرفع من الفصاحة اللفظية اللتين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن، تناسقٌ تدركه الأسماع فيسري في خفايا الجسد ليحرك المشاعر، إنه تناسق الصوت ومعناه، فهو كتناسق الحدث ورؤياه[15].

((ذلك أن القرآن لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع، ولكنّه يتكئ عليه، وعلى الوجدان ليستميل))[16].

لذا فإنّ القرآن ما كان تاركاً أسلوباً كأسلوب التأثير الصوتي دون الإفادة التامة من خصائصه التأثيرية والجمالية[17]، فكانت مفرداته ((الشكل الدلالي الوحيد الصالح بأفضل أداء صوتي ممكن للتعبير عن كلِّ أغراض السياق))[18].

تأمل معي قول ابن مسعود: ((إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن))[19].

يقول الدكتور كاصد الزيديّ: ((ولا شك أنّ ابن مسعود لم يذهب في وصف الحواميم إلى مجرد هذا الملحظ الموسيقي من الفواصل وأوزان الكلمات، بل لا بدَّ أنه ذهب إلى أعمق من ذلك وأدق، إلى ائتلاف الأصوات اللغوية في الكلمة الواحدة وانسجامها موسيقياً، وإلى ائتلاف أواخر الألفاظ وتناغمها، بحيث تتصل اللفظة باللفظة من غير نبوٍّ ولا شرود، فيحس القارئ وهو يتلو تلك السور بانسيابية موسيقية رائعة))[20].

تناسب جرس الألفاظ مع الجو الحسيّ:

فالقرآن يستعمل الألفاظ ذات الجرس الإيقاعي الناعم الرخي في المواضع التي يشيع فيها جو من الحياة الهانئة الجميلة.

قال تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18]، فالصبح إذا أقبل، أقبل بإقباله روح ونسيم يبث على الحياة في الطبيعة والإنسان، والقرآن تخير له هذه اللفظة ذات الجرس الهامس الرقيق، ((ولو تأملنا في رقة هذه اللفظة وسلاستها لوجدناها ملائمة لرقة الصبح ونداوته، يبدو ذلك في همس التاء والسين وذلاقة النون والفاء فاللفظة موحية بدلالتها وجرسها وظلها على هذه اليقظة التي شملت الطبيعة بعد سكون الليل وهدوئه))[21].

وإذا انتقلنا إلى مواضع العذاب والوعيد في القرآن، لم نخطئ إيحاء الجرس في أداء المعنى، ولم

(13) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 335، وينظر: الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 1
(14) الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 3.
(15) التصوير الفني في القرآن: 78، وينظر: الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 344.
(16) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 364، وينظر: من بلاغة القرآن: 36.
(17) ينظر: الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 1.
(18) الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 1.
(19) دلائل الإعجاز: 388.
(20) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 334.
(21) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 335، وينظر: الكشاف: 325/ 6.

يعسر علينا إدراك أثره في تصوير المشاهد والأحداث.

فنحن ندرك بلا مشقة هذا الجرس الشديد الذي يحكي صورة العذاب الذي انصب على الطغاة، عاد، وثمود، وفرعون ذي الأوتاد، في هذه العبارة الموحية: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: 13]، وسواء أكان المراد بالسوط في لغة الآية الآلة المعروفة التي يضرب بها، أم كان على قول بعضهم مصدرا، فإن جرس هذه اللفظة مع ما تقدمها من الصب يلائم هذا الحدث، والصاد والطاء من الأصوات المطبقة المستعلية، ذات الجرس الفخم الشديد، وورودها في الأسلوب القرآني ضئيل جداً[22].

تناسب جرس الألفاظ مع الجو النفسي:

إن من ألفاظ القرآن ما يلائم جرسها وإيقاعها الجو النفسي الذي أراد القرآن بيانه[23]، فحين يصور مشهداً من مشاهد يوم القيامة، يتسم بالخشوع للرحمن في العرض والحساب، كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه: 108]، ((فتوالي أصوات الهمس في المشهد الأخير مثلاً، يشعر بهذا الموقف الخاشع والجو الهامس المليء بخشية الله))[24].

وعلى هذا الأساس جرى إعطاء الجرس الموسيقي الشديد حقه في التعبير عما يناسبه من الشدائد، فقد استعمل القرآن لتصوير يوم القيامة أوصافاً موحية من مثل: الصاخة، والطامة، ((فالأولى لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، والثانية لفظة ذات دوي وطنين تخيل إليك أنّها تطمّ وتعمّ كالطوفان يغمر كلّ شيء ويطويه))[25].

المبحث الثاني : الإيحاءات الصوتية للمفردات القرآنية وصورها السمعية

مظاهر الإيحاء الصوتي في المفردة القرآنية:

إن المفردات هي لبنات التعبير عن المعنى، وكلّ معنى يمكن أنْ يؤدى بأكثر من مفردة، ولكن البليغ يتأنق في اختيار مفرداته لتساهم هذه المفردة بكلّ تفاصيلها بنيتها، وأصواتها، وترتيب حروفها، وحركاتها وسكناتها بتصوير ما تؤديه من معنى، يقول ابن عطية: ((كتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثمّ أُديرَ لسانُ العرب في أنْ يوجد أحسنَ منها لم يوجد))[26].

لذا فإنّ من الأسباب التي يمكن أن يبنى عليها اختيار مفردة ما هو مبلغ الإيحاء الصوتي المتحصل منها، والمناسب لما تدل عليه، ويمكن لنا أن نتلمس مواطن الإيحاء الصوتي في المفردة القرآنية فيما يأتي[27]:

أولاً: حركات البنية وتضعيفها:

قد أشار القدماء إلى أنّ بعض الأبنية الصرفية قد اقترنت بالدلالة على بعض المعاني، فكأنّهم وجدوا مناسبة صوتية بين مقاطع البنية ومعانيها، وقد عقد ابن جني لذلك بابا في الخصائص سماه: (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) قال فيه: ((اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته.

(22) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 347، وينظر: اللهجات العربية: 71.
(23) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 340.
(24) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 344.
(25) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 348، والتصوير الفني في القرآن: 80.
(26) المحرر الوجيز: 45/ 1.
(27) ينظر: شرح الأشموني: 3025/ 2، والتصريح: 73/ 2، ومعاني الأبنية: 27.

قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا: صرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر)) [28].

ومن ذلك نجد أنّ صيغة (فَعَلَان) تدلّ على التقلب والاضطراب والحركة[29]. قال سيبويه: ((ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النزوان، والنقزان والقفزان، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ومثله: العسلان...

وقد جاء على (فعال) نحو: النزاء، والقماص كما جاء عليه الصوت نحو: الصراخ، والنباح؛ لأن الصوت قد تكلف فيه من نفسه ما تكلف من نفسه في النزوان ونحوه...

ومثل هذا الغليان؛ لأنه زعزعة وتحرك، ومثله الغثيان؛ لأنه تجيش نفسه وتثور...)) [30]، لذا فأنت تقول: غلى الماء غلْياً، إن أردت الفعل، ولم ترد التقلب والحركة، ومنه قوله تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: 45 – 46] فإن أردت الحركة والاضطراب قلت: غلى الماء غلياناً[31].

((فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال)) [32].

ومن ذلك أنك تجد صيغة (الفَعَلى) في المصادر والصفات إنّما تأتي للسرعة نحو: الجَمَزَى، فجعلوا المثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها، كما جعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر.

ومن ذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرار، نحو الزعزعة، والقلقلة، والتي ((تتميز عن الثلاثي الأصليِّ بزيادة مقطع يضخّم حجم الفعل ليقوي طاقة التعبير بحكاية أصوات الشيء أو تصوير حركته أو نوره أو أثره في النفس بالأصوات فهو بذلك متميّز بإيقاع ذاتي)) [33].

وقد ورد عدد من هذه المصادر في القرآن الكريم، وفي جميعها ما يدل على هذا المعنى، نحو: كبكب، وزحزح ...، والملاحظ أن الألفاظ القرآنية التي جاءت على هذه الصيغة يتضمن أغلبها، إلى جانب معنى التكرير دلالة كلٍّ منها على صوت الحدث الذي تعبر عنه.

قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: 94]، فكبكبوا: مأخوذ من الكب، وهو القلب، والكبكبة تدهور الشيء في هوة، وهذه الصيغة قد حمَّلت اللفظ في تكرار صوتها زيادة معنى التدهور[34]، ((وبهذا صورت هذه الكلمة بصيغتها وأصواتها وحركاتها المعنى تصويراً دقيقاً، ونقلته إلى المتلقي صوتاً مسموعاً، كما رسمته في ذهنه صورة تضج بالحياة والحركة)) [35].

وقال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185]، ففي صوتي الزاي والحاء، واجتماعهما وتضعيفهما تصوير لمشهد ((الإبعاد والتنحية بكلّ ما يقع في هذا المشهد من أصوات، وما يصحبه من ذعر الذي يمرُّ بحسيس النار ويسمعه ويصلاه، ولو فتشت جميع معاجم اللغة وقواميسها لا تجد كلمة تصور هذا المشهد إلاّ كلمة زحزح)) [36].

(28) الخصائص: 152/ 2.
(29) ينظر: الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 3.
(30) الكتاب: 218/ 2.
(31) ينظر: معاني الأبنية: 28.
(32) الخصائص:152/ 2.
(33) الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 3.
(34) الصوت اللغوي في القرآن: 167.
(35) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 473.
(36) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 475، وينظر:

2- مخارج الحروف وصفاتها:

ليس بين الأصوات ومعانيها دلالة طبيعة كما ذهب بعض المتقدمين من العلماء، ولكنا لا نعدم الانسجام بين أصوات بعض المفردات ومعانيها.

قال ابن جني: ((فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب واسع،... وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها))[37].

لذا فإن من الألفاظ ما هو مصور لمعناه بجرس حروفه، فكأنّ هناك اختياراً مقصوداً للصوت ليؤدي المعنى المغاير لما يؤديه الصوت الآخر.

وفي القرآن كلمات شديدة الإيحاء قوية البعث لما تتضمنه من المعاني، وهناك عدد كبير من الألفاظ التي تصور بأصواتها ما تحتها من المعاني.

تناوب الصوت في اللفظ القرآني:

في العربية ألفاظ كثير تشترك في دلالتها، وفي نوعها، وبنيتها، وحروفها إلا في حرف واحد يميزها، فيشترك لفظان أو أكثر في الدلالة من جهة العموم، ويفرق الصوت المتايز بناء على خصوصيته الصوتية دلالة أحدها عن سواه من جهة الخصوص[38].

وهذا الأسلوب كثير في كلام العرب؛ إذ يتغير المعنى بتغير صوت من أصوات لفظه كما ذهب ابن جني في التفرقة بين خضم، وقضم؛ إذ يستخدم الصوت الأقوى غالباً للدلالة على المعنى الأقوى، فالخضم لأكل الرطب، كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس، نحو قضمت الدالة شعيرها، وفي الخبر: قد يدرك الخضم بالقضم، أي: قد يدرك الرخاء بالشدة.[39].

ولعل أهم ما يتبادر إلى الذهن كمؤثر صوتي هو اختلاف المفردات بصوت واحد يكون مهموساً في أحدها مجهوراً في أخرى، لذلك نرى القرآن يعدل عن إحداهما إلى الأخرى بحسب حاجة السياق أو الصورة التي ترسم كما في استخدامه تعالى لكلمة (نضخ)، بدلاً من (نضح)، وكلاهما كان يعني خروج الماء فقال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن 66]، فالنضخ والنضح واحد إلاّ أنّ الأول أكثر، وهذه من فوائد الإبدال الصوتي في العربية، فلفظة (تنضخ) التي تعبر عن فوران السائل في قوة وعنف إذا قورنت بنظيرتها (تنضح) التي تدل على تسرب السائل في توئدة وبطء، إنما تسرب إليهما هذا الفرق الدقيق في الدلالة من اختلاف أصوات بعض حروفهما؛ فصوت الخاء في الأولى له دخل في دلالتها؛ لأن الأصوات الفخمة القوية تواتي المواقف القوية[40].

القطع والقطف:

تأمل معي إلى الفرق بين القطف والقطع، فهما يشتركان في الدلالة على القطع، ويفترقان في نوعية المقطوع، ((فالفاء صوت شفوي، رخو، مهموس، مرقق فهو يناسب معاني الرقة واللطف؛ لذا استعمل القطف للزهور والفاكهة، وما شابه ذلك مما لا يلزم قطعه إلى إعمال الشدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 22 - 23]، وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: 14].

الإعجاز في نظم القرآن: 116.

(37) الخصائص: 157/ 2.

(38) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 287.

(39) الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 5. وينظر: الخصائص: 157/ 2، ودلالة الألفاظ: 46، وبحوث لسانية: 13.

(40) ينظر: الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 5.

أما العين فصوت حلقي مجهور، يتميز بالغلظة فهو يناسب معاني الشدة والقوة؛ لذا استعمل القطع لكلِّ ما يلزمه ذلك مادياً كان كما في قوله تعالى على لسان فرعون مخاطباً سحرة بني إسرائيل بعد إيمانهم برب العالمين: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124]، أو معنوياً، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: 45]))[41].

الأزّ والهزّ:

إن الهمزة حرف مخرجه من أقصى الحلق، وهي حرف شديد، وبعده في المخرج يأتي الهاء، وهو حرف مهموز، وكلاهما يدل على التحريك، ((إلاّ أن أزّه أبلغ من هزّه، وتفوُّق الأزِّ على الهزِّ من حيث القوة راجعٌ إلى الهمزة لأنَّها أقوى من الهاء، لاتصاف الأولى بالشدة، والثانية بالرخاوة.

ولهذا خصَّ الشيطان بالهمزة فقيل: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]، وخصت مريم بالهاء، فقيل لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ﴾ [مريم: 25]، حيث إنّ الاختلاف بين هذين الصوتين من شأنه أن يجعل الأزّ أعظم في النفوس من الهز))[42].

ثالثاً: قواعد التجويد وأداؤها:

وذلك عندما تنسجم الحروف في بنية مّا، أو تنسجم بنية لفظة مع أخرى في التركيب، فيكوّن ذلك الانسجام أصواتاً متنوعة من الادغام، والمد، والغنّة وغيرها، وقد ضبطها الأئمة في علم التجويد والأداء، تلك الأصوات المتولدة في التركيب يمكن أن تحمل في طياتها كثيراً من المعاني التي تجيش في نفس صاحبها.

ويعدّ المدّ من أغنى تلك الظواهر بالموسيقى لأنّه امتداد اللفظ بالصوت، ((ويبدو أن الأصوات الصائتة بعد هذا هي الأصوات المأهولة بالانفتاح المتكامل لمجرى الهواء، فتنطلق دون أي دوي أو ضوضاء، وتصل إلى الأسماع مؤثرة فيها تأثيراً تلقائياً في الوضوح والصفاء، وعلة ذلك انبساطها مسترسلة دون تضيق في المخارج))[43].

وفي هذا الامتداد والانفتاح إطالة في النطق، ((وهذه الإطالة هي المهمة في قيمة العبارة القرآنية موسيقياً، والمدّ إلى جانب هذا يقف بالقارئ على الأثر النفسي وراء هذه العبارة أو الكلمة التي فيها مدّ))[44].

اقرأ مجوداً مقولة ابن سيدنا نوح لأبيه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: 43].

وتأمل مدّ الياء في الآية الكريمة، واستشعر ((كيف شارك المدّ في التعبير عمّا في نفس ابن نوح؛ إذ المدّ هنا يلقي بظلاله على مدى البعد المكاني وعلوّ الجبل، الذي نشده المتكلم ليفر وينجو به من الطوفان، وهو تعبير عما في النفس))[45].

وتأمل قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾، من قوله: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ﴾ [الأنعام: 80]، واستمع إلى المدّ اللازم الكلمي المثقل في الموضعين من هذه الكلمة، فطول المدة التي ينطق اللسان بها تحمل في طياتها تفاصيل حالته النفسية في التعجب والدهشة من حالهم والله أعلم[46].

(41) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 287.
(42) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 289، وينظر: الخصائص: 2/ 146.
(43) الصوت اللغوي في القرآن: 182.
(44) التعبير القرآني والدلالة النفسية: 174.
(45) التعبير القرآني والدلالة النفسية: 174.
(46) ينظر: التعبير القرآني والدلالة النفسية: 174.

واستمع مليّاً إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51]، وتأمل المدين اللازم والعارض للوقف في ﴿دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ ، واستشعر طول وصدق دعاء من مسَّه الضر، فناهيك به من دعاء عرض طويل يحمل في طياته الألم والأمل، وذلك منسجم مع حال صاحبه الذي أثرت في جسده بلايا الابتلاء.

رابعاً: ألف المدّ وزيادتها:

إن الألف بمخرجه الواسع المنفتح، وامتداده الفسيح كان من أوسع الأصوات تحمّلا للمشاعر، وأعلى تلكم المشاعر هو ما يبعث على الحسرة والندم.

ويمثل الشعور بالندم والتحسر على ما مضى من أشدّ ما يؤلم الإنسان، ويحزّ في نفسه، ((فديدن من يغلبه الندم والأسى على ما لا رجعة فيه أن يرفع عقيرته نادباً منتحباً ماداً في صوته المتحسر ونبراته الأسيفة صارخاً بنغمة طويلة ممطوطة وموسيقى متموجة مديدة))[47].

فإذا جاء هذا الاحساس متأخراً، أو أصبح تصحيح الأخطاء متعذراً كان ذلك الإحساس أشد وطأة على النفس؛ لأنّه لات ساعة مندم، وعادة ما تنتهي عبارات التحسر والأسى بألف المدّ، نحو: (يا حسرتا)، و(يا ويلتى)، و(يا أسفى) كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: 56] ، و ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان: 28]، و ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84][48]، فهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة، إنّها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة[49].

وقد زيدت الألف في أواخر بعض الألفاظ، وفي مواضع معينه من آيات القرآن الكريم، وقد حملها كثير من العلماء على تناسب نهايات الفواصل، ومن ذلك ما ورد في سورة الأحزاب، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: 10]، فقد زيدت الألف بعد النون في لفظة (الظنونا)، مع أن الأصل ورودها بغير ألف.

وقد عللوها بتناسق الفواصل وتناسبها، قال الزركشي: ((لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين الوقف، فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل، ومثله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: 67]، وقوله: ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: 66]))[50]. إذ زيدت الألف على اللام في الآيتين كما هو واضح لأجل تناسق فواصل الآيات.

غير أن بعض المغاربة أنكر أن تكون زيادة الألف اجتلبت من أجل تناسق الفواصل، وقال: لم تزد الألف لتناسب رؤوس الآي، كما قال قوم؛ لأن في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4]، وفيها: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾، وكل واحد منها رأس آية، وثبتت الألف في الثاني دون الأول، فلو كانت لتناسب رؤوس الآي لثبتت في الجميع[51].

إن التأمل في سياق المفردتين قد يوحي بدلالة الألف الزائدة، إذ أن السبيل التي فيه ألف زائدة جاءت على لسان ((أهل النار، وهم يصطرخون

(47) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 407، وينظر: التصوير الفني: 113.
(48) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 407.
(49) مشاهد القيامة: 7.
(50) البرهان في علوم القرآن: 58/ 1.
(51) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 61/ 1، والجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 360.

فيها، ويمدون أصواتهم بالبكاء، فجاء المد، وهو المناسب لمد الصوت بالبكاء ورفعه بخلاف الآية الثانية))[52].

ولنفس السبب جاءت زيادة الألف في (الرسولا)؛ لأنها وردت في ذات السياق، وعلى لسان أهل النار، وذلك على سبيل إظهار التحسر والندم، وهي حالة يناسبها مد الصوت واستطالته[53].

أما لفظة (الظنونا)، فجاءت في سياق تعددت فيه الظنون، ظن المنافقين أن المسلمين يستأصلون، وظن المؤمنين أنهم يبتلون، وقد جاء امتداد الألف تعبيرا عن امتداد هذه الظنون، ((فكما امتدت بهم الظنون، وتجاوزت حدود ما كتب لهم، كذلك امتد الصوت بهذه الفاصلة متجاوزا حدود ما تستحقه هذه اللفظة (الظنون) مما وضع لها من أصوات))[54].

ومثلها ألف (سلاسلا)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: 4]، فإن الألف((قد زيدت عن قصد ولحكمة تراد لها، وهي أن هذه الألف تشير إلى معنى مضمر في كلمة (سلاسلا) وأنها سلاسل طويلة جاوزت في طولها الحدَّ المعروف للسلاسل التي يُقيَّد بها الحيوان أو الإنسان))[55].

المبحث الثالث : الصور السمعية للإيحاءات الصوتية في الألفاظ القرآنية

إن سر الإعجاز البياني في القرآن الكريم إنما يكمن في نظمه، والنظم على ثلاثة أنواع يكمل بعضها بعضا، نظم الحروف، ونظم المفردات، ونظم التراكيب، فكل ((لفظ في القرآن الكريم اختير مكانه وموضعه من الآية أو العبارة أو الجملة فإن غيره لا يسد مسده بداهة، فقد اختار القرآن اللفظ المناسب في الموقع المناسب من عدة وجوه، وبمختلف الدلالات، إلا أن استنباط ذلك صوتيا يوحي باستقلالية الكلمة المختارة لدلالة أعمق، وإشارة أدق بحيث يتعذر على أية جهة فنية استبدال ذلك بغيره، إذ لا يؤدي غيره المراد الواعي منه، وذلك معلم من معالم الإعجاز البياني في القرآن)) [56].

إن أصغر وحدة في نظم الكلام إنما هي الصوت الذي يحدثه الحرف، وهذه الوحدة هي الأساس في حدوث النغم، فأصوات الحروف ((إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع في التركيب وجهة في التأليف حتى يمازج بعضها بعضا، ويتألف منها شيء مع شيء، فتتداخل خواصها، وتجتمع صفاتها، ويكون منها اللحن الموسيقي، ولا يكون إلا من الترتيب الصوتي الذي يثير بعضه بعضا على نسب معلومة ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده))[57].

إن لجرس الألفاظ قيمة بيانية، يبلغ المتكلم بها المبلغ الذي لا مزيد عليه، وهذه القيمة البيانية لجرس الألفاظ أطلق عليها بعض المعاصرين مصطلح (الصورة السمعية)، فالإحساسات المرئية للكلمات يندر أن تحدث بمفردها، إذ تصحبها أشياء ذات علاقة وثيقة بها، وأهم هذه الأشياء الصورة السمعية، التي هي وقع جرس الكلمة على الأذن

(52) التعبير القرآني: 104، وينظر: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 612.
(53) ينظر: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 613.
(54) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 613.
(55) الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 9.
(56) الصوت اللغوي في القرآن: 188.
(57) إعجاز القرآن: 151.

الباطنية، أو أذن العقل[58].

((فالجرس إذن يشكل خاصية ذاتية محسوسة في بناء اللفظة، يشارك في ذلك تباين أجراس حروفها من حيث المخرج والنوع والصفة والحركة وطبيعة ائتلاف كل هذا بعضه مع بعض داخل المفردة، أو في منظومة التركيب اللغوي.

فأدنى تغير في صيغة اللفظ من شأنه أن يغير من طبيعة جرسه، مما يؤدي إلى تغير الانطباع السمعي حياله))[59].

أولا: محاكاة جرس اللفظ لصوت الحدث:

يتوخى الأسلوب القرآني أقصى درجات الدقة في تصوير الأحداث ذات الأبعاد المادية الحسية، ومن ذلك أن كثيراً من المعاني التي تحمل بعدا سمعيا، أي أن لها في الواقع المادي صدى صوتي خاص، فإن القرآن حريص على أن تتجلى ملامح من أصواتها المادية تلك في الحروف التي تحملها، منفردة كانت أو مجتمعة، فيستشعر قارئ القرآن، أو المستمع إليه صوت المعنى الحسي المعبر عنه، وكأنه يطرق مسامعه، فيعيش أجواء الحدث صورة متخيلة، وصوتاً يكاد يسمعه على حقيقته.

وكثيراً ما يقوم بهذا الدور حرف أو صوت واحد في لفظة ما فيمنحها ملامح صوتية أو جرسا خاصاً يجعلها أقرب إلى حقيقة ما تدل عليه، ومن ذلك أصوات الصفير، فهي ((في وضوحها وأصداؤها في أزيزها جعل لها وقعاً متميزاً ما بين الأصوات الصوامت، وكأن ذلك فيما يبدو لي نتيجة التصاقها في مخرج الصوت واصطكاكها في جهاز السمع، ووقعها الحاصل ما بين هذا الالتصاق وذلك الاصطكاك، هذه الأصوات ذات الجرس الصارخ هي: الزاي، السين، الصاد يلحظ لدى استعراضها أنّها تؤدي مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة، وهي بذلك تعبر عن الشدّة حيناً، وعن العناية بالأمر حيناً آخر، ممّا يشكّل نغماً صارماً في الصوت وأزيزا مشدداً لدى السمع، يخلصان إلى دلالة اللفظ في أرادته الاستعمالية ومؤداه عند إطلاقه في مظان المعنى))[60].

استمع إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: 102]، وتحسس صوت السين في (حسيسها)، فهذا المهموس الاحتكاكي يضفي على هذه الكلمة ملمحاً صوتياً وجرساً خاصاً، يكاد ينقل إلى السمع أصوات النيران وحركة تلهبها.

ومثله السينات في سورة (الناس)، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: 1 – 6]، فلا تكاد تخلو آية من سين أو أكثر، تلك السينات التي أضفت على السورة جواً من الأصوات المهموسة المختلطة، فلا تكاد تسمع إلاّ وسوسة صوت السين التي تعبر عن وسوسة شياطين الإنس والجنّ.

وتأمل لفظ (صرصر)، و(الصرّ) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6]، وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: 117].

((فصوت الصاد الصفيري يحمل معه صوت صفير الريح وأزيزها، كما يحمل صوت اصطكاك الأسنان بسبب شدة البرد، أما صوت الراء المكرر فيجسد الصورة التكرارية لذلك الاصطكاك، كما يصور استمرار هبوب تلك الريح العاتية))[61].

(58) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 477.
(59) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 499.
(60) الصوت اللغوي في القرآن: 179.
(61) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 477.

إننا ((حين نصغي لحرف الصاد، نكاد نتلمس حقيقة هذا الصوت، ونتحسس ماهيته، فهو من الحروف الصفيرية، وعند النطق به يصحبه صفير وأزيز، ولهذا فهو يصلح لمحاكاة الأصوات الطبيعية، يقول الدكتور حسن عباس: لقد منحته هذه الخصائص الصوتية شخصية فذة، طغى بها على معاني معظم الحروف، في الألفاظ التي تصدرها، ليعطيها من نقاء صوته صفاء صورة وذكاء معنى، ومن صلابته شدة وقوة وفاعلية، ومن طبيعته الصفيرية مادة صوتية نقية، ما كان أصلحها لمحاكاة الكثير من أصوات الناس والحيوانات وأحداث الطبيعة))[62].

وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: 37]، ألا تفزعك هذه الكلمة بجرسها الغليظ وصوتها الصاخب، ورنينها الخشن المدوي، فهي تكاد تنقل إلى الأسماع ذلك الصراخ الشديد المحشرج المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب الأليم الذي لا يخفف عنهم، ولا يقضي عليهم فيموتوا، صراخ يعلو ويعلو يملأ جهنم من أقصاها إلى أقصاها[63].

((وما من شكّ في أن الجرس الغليظ والصدى الصاخب لهذه الكلمة مصدره اجتماع أصوات الصاد والطاء والراء والخاء معاً، فالصاد الصفيري الاحتكاكي المفخم، والطاء الانفجاري، والراء الكرر، والخاء الاحتكاكي المخنخن عملت مجتمعة إضافة إلى واو المد ونون الترنم على إبراز الصوت في (يصطرخون) بمثل هذه الصورة المتفردة الغليظة، فهل كنت تحس شيئاً من ذلك لو وضعت كلمة (يدعون) الهادئة الوديعة مكان (يصطرخون) الهادرة العنيفة))[64].

وتأمل مشاكسة الحروف في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزمر: 29]، ودلالتها على المخاصمة والعناد والجدل في أخذ وردّ لا يستقران، وقد تعطي بعض معناها كلمة (متخاصمون)، إلا أن التعبير القرآني آثر استعمال هذه الكلمة حفاظاً على الدلالة الصوتية التي تعطي معنى المخاصمة القائمة على الصراخ، وقد جمعت في هذه الكلمة حروف التفشي والصفير في التاء والشين والسين تعاقباً تتخللها الكاف، فأعطت هذه الحروف مجتمعة نغماً موسيقياً خاصاً حمّلها أكثر من معنى الخصومة والجدل والنقاش بما أكسبها من أزيز في الأذن يبلغ السامع إلى أن الخصام قد بلغ درجة الفورة والعنف من جهة، كما أحاطه بجرس مهموس خاص يؤثر في الحس والوجدان من جهة أخرى[65].

ثانياً: مناسبة جرس اللفظ لنوع الحدث:

إن جرس اللفظ تشكل من أمرين: أصواته التي يتألف منها، ومقاطعه الصوتية التي ينتظم فيها، وتقوم مقاطعه الصوتية عادة، بعقد المناسبة بينها وبين ما تدل عليه، ((بما تمنحه من إيقاعات خاصة بتصوير حركة المعنى، خاصة عندما يكون اللفظ قد انتدب للتعبير عن معنى حسي متحرك.

وهذه الخصوصية يتميز بها اللفظ القرآني، حيث يتم إجراء تحوير مقصود على الصيغة الأصلية

(62) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 346، وينظر: الصوت اللغوي في القرآن: 187، وخصائص الحروف العربية ومعانيها: 149.

(63) ينظر: الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 504.

(64) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 504، وينظر: الصوت اللغوي في القرآن: 65، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 236/1.

(65) ينظر: الصوت اللغوي في القرآن: 167، والصورة الفنية في المثل القرآني: 239، والدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 505.

للفظ، أو شكله المألوف لغويا عند أهل اللغة، ليتحول إلى صورة خاصة ذا جرس خاص، تنقل صورة الفعل وحركته كما هي في واقعها المادي المحسوس)) [66].

تأمل وأنت تتلفظ قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38] ألا تحسّ ثقلاً مقصوداً في أبرز مفرداتها، لقد جاءت كلمة (اثاقلتم) بجرسها ومقاطعها لتصور معنى التقاعس والتثاقل والتقاعد عن المبادرة إلى الخروج أبدع تصوير وأدقه.

فأصل هذه الكلمة (تثاقلتم) أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن، وقد جاء هذا التحوير في صيغة (تفاعلتم) إلى صيغة (افاعلتم) ليتهيأ للفظة (اثاقلتم) أن تقوم بأعباء الأداء الفني المطلوب لها في هذا السياق[67]، ((إن في هذه الكلمة طنًّا على الأقل من الأثقال؟ ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها))[68].

واستشعر الصعود وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 125]، ألا يشعرك تدرج القراءة بتدرج التصعد، ((والأصل في تصعد: يتصعد، أدغمت التاء في الصاد، لتضاعف التشديد في اللفظ فيأتي جرسه متناغما مع معنى الصعود الثقيل البطيء، ... فجاء هذا اللفظ على القراءة المشهورة بهذه الصيغة دون لفظ يتصعد الذي عدل عنه، ودون لفظ يتصاعد الذي تشاطره المعنى، فرجحهما لتفوقه عليهما بتضعيف صوتين متعاقبين هما الصاد والعين، وتكرار مقطعين متماثلين متعاقبين .. إن هذا التكرار في الأصوات هو الذي منح لفظ (يصعد) جرسا مشعرا بثقل الحركة وبطء الإيقاع، وهما ثقل وبطء يناسبان تماما المعنى المراد ويصورانه أدق تصوير))[69].

وتأمل حروف التفشي وما فيها من دلالة الانتشار، واقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 4 – 5]، ((فالفراش هو الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً، إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة، بل يتطاير من كل جانب، فهو مبثوث، وقد انتهت كلمة الفراش وكلمة المنفوش بالشين، كما انتهت كلمة المبثوث بالثاء، والشين والثاء من حروف التفشي والانتشار))[70].

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: 22]، يشعر بأن جرس اللفظة (ضيزى) ملائم كلَّ الملاءمة للدلالة على تلك القسمة الجائرة، ((وأية لفظة أخرى لها عين مفهومها في اللغة، مثل: ظالمة، أو جائرة لا توفي المعنى المراد إيفاء تلك اللفظة القرآنية، إذ ليس لهاتين اللفظتين أو نحوهما ذلك الوقع النفسي الذي يحدثه جرسها، بما فيه من ثقل حرف الضاد المستعلي الفخم، وإيحاء المدين المتقابلين إلى أسفل وإلى أعلى، أعني حرف الياء والألف اللذين رأى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في جرسهما ما يشبه حال المتهكم المستغرب حين يميل يده ورأسه، فغرابة هذه اللفظة في وضعها اللغوي وجرسها من أكثر الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي قسمها الجاهليون))[71].

(66) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 508.
(67) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 509، وينظر: التعبير الفني في القرآن: 180.
(68) التصوير الفني في القرآن: 76.
(69) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 514.
(70) الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: 6.
(71) الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: 346، وينظر: إعجاز القرآن: 261، ومن بلاغة القرآن: 261.

وإليك الحاقة وأخواتها، فلشدة هول يوم القيامة اختار الجبّار لها من الأوصاف ما يوحي بجرسه إلى هولها وشدة وقعها، فقد اجتمعت فيها كلّ مظاهر الإيحاء الصوتي، وقد تميزت ألفاظ هذه المجموعة المؤلفة من (**الحاقّة**) و(**الطّامّة**) و(**الصّاخّة**) بصدى صوتي مدو، يأخذ بمجامع القلوب، ويشدها إلى ارتقاب ذلك الحدث الموعود بذهول ووجل، فهذه ((الصيغة صوتياً تمتاز بتوجه الفكر نحوها في تساؤل، واصطكاك السمع بصداها المدوي وأخيرا بتفاعل الوجدان معها مترقبا الأحداث المفاجئات النتائج المجهولة))[72].

وقد اختيرت هذه الألفاظ بدقة متناهية لتصور ذلك اليوم، وتصفه بهذه الصفات العنيفة، وخصوصية هذه الألفاظ متأتية من كونها ((كلمات تستدعي نسبة عالية من الضغط الصوتي، والأداء الجهوري لسماع رنتها، مما يتوافق نسبياً مع إرادتها في جلجلة الصوت وشدة الإيقاع.

كل ذلك مما يوضح مجموعة العلاقات القائمة بين اللفظ ودلالته في مثل هذه العائلة الصوتية الواحدة، فإذا أضفنا إلى ذلك معناها المحدد في كتاب الله، وهو يوم القيامة، خرجنا بحصيلة علمية تنتهي بمصاقبة الشدة الصوتية للشدة الدلالية بين الصوت والمعنى الحقيقي))[73].

وهذه الشدة الصوتية التي تتميز بها هذه الصيغة متحصلة من طبيعة المقاطع الصوتية التي تشتمل عليها، والخصوصية الصوتية التي منحها هذا التركيب المقطعي لألفاظ الحاقة والصاخة والطامة قوامها توفرها على المقطع طويل المد المغلق بصامت، الذي يتوسط كلا منها، فهذا المقطع من المقاطع النادرة جداً في الكلمات العربية.

((والشدة التي في هذه الألفاظ المدغمة مصدرها إضافة إلى صفات أصواتها، يكمن في كونها ينبغي أن يشبع التشديد التالي لألف المد بعد إعطاء المد حقه؛ لأنّ المدّ إنما حدث من أجل التشديد، فبعد أن ينطلق الصوت بالمقطع الأول (ألـ) في الحاقة، و(أصـ) في الصاخة، و(أط) في الطامة يرتفع بعدها محلقاً بألف المدّ الصاعد، مانحاً إيّاه ما يستحقه من الامتداد، وقبل أن ينقطع النفس يغيّر التنغيمُ اتجاهه بحركة عكسية تماماً، فيهوي كالصاعقة على حروف القاف والخاء والميم ضاغطاً عليها بقوة، ثم ينقطع الصوت بعدها مباشرة، فتحدث من الوقع في النفس ما تحدثه الصاعقة في الأشياء حين تهوي فجأة فتقضي على ما يعترضها دفعة واحدة، فتسكن بعدها مباشرة، وكأن شيئا لم يكن))[74].

الخاتمة

يمكن للمتأمل في صفحات هذه البحث أن يخرج بنتائج أهمها:

1- إن لجرس لصوت وإيقاعه أثره في اجتذاب الأسماع وأسر القلوب؛ لذا كان الإيقاع وسيلة فاعلة من وسائل تصوير المعاني والأحداث.

2- إن القرآن الكريم قد وظف الصوت بكلّ مستوياته توظيفاً دقيقاً لخدمة المعنى الذي دلَّ عليه.

3- تنوعت مظاهر الإيحاءات الصوتية للمفردات القرآنية، فتارة تكون بالحركات والمقاطع، وتارة بالأصوات واجتماعها، وأخرى بالمدود وأحكامها.

4- إن المفردات القرآنية فيها كثير من الإيحاءات الصوتية، فتارة تحاكي صورة الحدث، وتارة تناسب نوع الحدث وطبيعته.

(72) الصوت اللغوي في القرآن: 168.

(73) الصوت اللغوي في القرآن: 168.

(74) الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: 482.

المصادر

- الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية: د. أبو عائشة، ملتقى أهل التفسير (بحث منشور على الإنترنت).
- الإعجاز البياني للقرآن: عائشة بن الشاطئ، ط3، دار المعارف، القاهرة.
- الإعجاز في نظم القرآن: محمود السيد شيخون، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة.
- إعجاز القرآن والبلاغة العربية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط9، 1393هـ=1973م.
- البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين الزركشي، محمد بن بهادر، (ت: 794هـ)، تحقيق: عبد القادر عبد الله العاني، دار الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، 1413هـ=1992م.
- البرهان في علوم القرآن: محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبةالعصرية،بيروت،ط1،1425هـ=2004.
- تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: د. مهدي صالح السامرائي، المكتب الإسلامي، دمشق، ظ1.
- التصريح بمضمون التوضيح: خالد زين الدين بن عبد الله الأزهري، (ت905هـ)،تحقيق: د. عبد الفتاح بحيري إبراهيم، القاهرة، ط1، 1413هـ= 1992م.
- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط17، 1435هـ=2004م.
- التعبير الفني في القرآن: بكري شيخ أمين، دار الشروق، القاهرة، ط1.
- التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، ط4، 1427هـ=2006م.
- التعبير القرآني والدلالة النفسية: د. عبد الله محمد الجيوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط1، 1426هـ=2006م.
- الجرس والإيقاع في تعبير القرآن: د. كاصد ياسر حسين، مركز تحقيقات كامبيوتري إسلامي.
- الخصائص: ابن جني: عثمان بن جني، ت392هـ، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، مصر، 1413هـ=1992م.
- خصائص الحروف العربية ومعانيها: حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998م.
- دلائل الإعجاز: الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، ت471هـ، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 1424هـ= 2004م.
- دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1976م.
- الدلالة الصوتية في القرآن الكريم: د.ماجد النجار، (د.م)
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: الأشموني، علي بن محمد، (ت نحو900هـ)، طبع مع حاشية الصبان، ومعه شرح الشواهد للعيني:، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، مصر.
- الصوت اللغوي في القرآن: د. محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط1، 1420هـ=2000م.
- الصورة الفنية في المثل القرآني: د. محمد حسين

عـلي الصغـير، دار الرشـيد، بغـداد، 1981م.
- في اللهجـات العربيـة: د. إبراهيـم أنيـس، مكتبـة الأنجلـو المصريـة، ط8، 1992م.
- الكتـاب: سـيبويه، أبـو بـشر عمـرو بـن عثـمان، (ت180هـ)،تحقيـق: عبـد السـلام محمـد هـارون، عـالم الكتـب - بـيروت.
- الكشـاف عـن حقائـق غوامـض التنزيـل وعيـون الأقاويـل في وجـوه التأويـل: الزمخـشري، محمـود بـن عمـر، (ت538هـ)، تحقيـق: عـادل أحمـد عبـد الموجـود، وعـلي محمـد معـوض، مكتبـة العبيـكان الريـاض، ط1، 1418هـ -=1998م.
- المثـل السـائر في أدب الكاتـب الشـاعر: ابـن الأثـير، نـصر الله بـن محمـد، ت637هـ، تحقيـق أحمـد الحـوفي، وبـدوي طبانـة، مكتبـة النهضـة، القاهـرة، ط1، 1962م.
- المحـرر الوجيـز في تفسـير الكتـاب العزيـز: ابـن عطيـة الأندلـسي، أبـو محمـد عبـد الحـق بـن عطيـة، (ت541هـ)، تحقيـق: الرحالـة الفـاروق، وعبـد الله بـن إبراهيـم الأنصـاري، والسـيد عبـد العـال السـيد إبراهيـم، ومحمـد الشـافعي الصـادق العنـاني، مطبوعـات وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية - قطـر، ط2، 1428هـ=2007م.
- المحصـول في أصـول الفقـه: محمـد بـن عمـر الـرازي، (ت: 606هـ)، تحقيـق: طـه جابر العلواني، مؤسسـة الرسالة، ط3، 1418هـ=1997م.
- مشـاهد القيامـة: سـيد قطـب، دار الـشروق، القاهـرة، ط14، 1423هـ=2002م.
- معـاني الأبنيـة: د. فاضـل صالـح السـامرائي، دار عـمار، الأردن، ط2، 1428هـ=2007م.
- مـن بلاغـة القـرآن: د. أحمـد أحمـد بـدوي، نهضـة مـصر، 2005م.